التحقيب الثلاثي الغربي: مفهومه وأبعاده

د. محمد صالح يونس ضوّاي

قسم التاريخ، كلية الشارقة للعلوم التربوية، جامعة الملك فيصل بتشاد، أنجمينا–تشاد.
Email: mhdsalehdawai@gmail.com

ملخّص

تستعرض هذه الدراسة، جذور التحقيب الثلاثي الغربي، للمساهمة في بناء نظرية نقدية في فلسفة التاريخ والحضارة، من خلال إعادة طرح أبعاد التحقيب وتعالقاته الحضارية. باعتبار أن هذه المسألة متعددة الأبعاد والزوايا، فالتحقيب بقدر ما هو وصف لمآلات الحضارة، فهو أيضاً تفتيت للزمن التاريخي وتمييز له في ذات الوقت. من هذا المنطلق؛ تحاول هذه الدراسة ملامسة مفهوم التحقيب، والتركيز على أبعاده الحضارية من خلال المقاربات المنهجية للحقب التاريخية الثلاث: القديمة، الوسطى، والحديثة، ومن ثم محاولة توضح أثر تعميم منطق التحقيب الثلاثي على التاريخ العربي/الإسلامي، لإعادة النظر في بنائيته المصطلحية، وأبعاده الفكرية، ومضامينه التأويلية؛ لأن إسقاطه على التاريخ البشري الطويل، يتعارض مع منطق الأحكام العلميّة.

وقد استعانت الدراسة بالمنهج الوصفي والتاريخي والمقارن، لتوصيف جذور فلسفة التحقيب من منظور غربي، ومن ثم مقاربته بالمنظور الشرقي/الإسلامي، وفق آليات علمية محددة، كشفت عن بعض النتائج التي تفيد بوجود مضامين فكرية في مصطلح التحقيب الثلاثي، وهي لا تنطبق بالضرورة على جميع جوانب السيرورة التاريخية التي قطعتها الحضارة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: التحقيب الثلاثي، الغرب، الأبعاد.

(ISSN: 2536 - 9555)

Western Triangular Investigation: Its Concept and Dimensions

Abstract:

This study reviews the roots of the Western Tripartite Investigation, to contribute to building a critical theory in the philosophy of civilization, by re-introducing the dimensions of Investigation and its civilizational relationships. Considering that this issue is multi-dimensional and angles, so as far as it is a description of the fates of civilization, it is also a fragmentation of historical time and a distinction for it at the same time. From this point; This study attempts to touch the concept of retrospection, and focus on its civilizational dimensions through the methodological approaches of the three historical eras: ancient, middle, and modern. Because projecting it on the long human history contradicts the logic of scientific judgments.

The study used the descriptive, historical, and comparative approach to describe the roots of the philosophy of retrospection from a Western perspective, and then approached it with an eastern perspective, according to specific scientific mechanisms, which revealed some results that indicate the existence of intellectual implications in the term triple retrospection, which does not necessarily apply to all aspects of the historical process that human civilization has gone through.

Keywords: triangulation, West, dimensions.

مقدمة

وُضعت تحقيبات تاريخية لتقريب الزمن إلى الأذهان، والتموقع المتسلسل في التاريخ الحضاري، لفهم ما جرى في الماضي وربطه بالحاضر واستشراف المستقبل على ضوئهما. ومن تلك التحقيبات، التحقيب السلالي، والتحقيب الخماسي الشيوعي (مشاعية، عبودية، إقطاعية، رأسمالية، اشتراكية) والتحقيب الثلاثي، المعني بالدراسة في هذا السياق، والذي أصبح رائجاً في الفكر الأدبي والثقافي الغربي، بل وفي كتابات كثير من المفكرين والمؤرخين، كما أضحى مسيطراً على معظم البرامج المدرسية والتربوية والأكاديمية في العالم الشرقي/الإسلامي. لهذا، تسعى هذه الدراسة إلى تسجيل بعض الملاحظات على أبعاد التحقيب الثلاثي الغربي والتي تؤكد عدم ملائمته لمسيرة التاريخ العربي الإسلامي.

مفهوم التحقيب الثلاثي الغربي

يمثل التحقيب حقلاً فكرياً ومنهجياً أصيلاً في دراسة تاريخ العلوم، وبهذا يمكن وصفه بأنه عملية ذهنية ومنهجية تتطلب استحضاراً قوياً للحس التاريخي والفكري. أو هو فلسفة اجتماعية تستوحي مضمونها من القدرة على التجميع التاريخي المتسلسل، حاول الفاعلون من خلاله أن يطرحوا قضيّة الوعي بالزمن وتغيراته المختلفة والتي تشكل ظاهرة فكرية متجددة بتجدد النظرة إلى الكون، ويشمل هذا التغير الوعي بالماضي والحاضر والمستقبل وفق نسق فكري محدد.

وتنطلق الفلسفات التحقيبية عموماً، من مجالات مختلفة ومتجاورة في ذات الوقت، كالتاريخ والأدب والفلسفة. لذا؛ يمكن القول بأن أي تحقيب يحمل مفهومين مختلفين: **مفهوم عام، وهو:** تقسيم التاريخ إلى فترات ومراحل زمنية، لتقريبه إلى الأذهان والأفهام. **ومفهوم خاص، وهو:** إسقاط تفسيرات وتأويلات على حركة الإنسان الحضارية والثقافية والاجتماعية والدينية[1].

[1]- *Halbwachs, Maurice, On Collective Memory,* (Chicago: The University of Chicago Press, 1992), p29-34.

(ISSN: 2536 - 9555)

المفهوم العام غير مراد في هذا البحث، نسج على منواله معظم كتّاب التاريخ والفلسفة والاجتماع. أما المفهوم الخاص، فهو المستهدف بالدراسة ها هنا، فنحاول متلمسين بعض الأبعاد الفكرية والتي تستدعي التركيز والتأمل في جذوره التاريخية وأبعاده الفلسفية.

وقبل الحديث عن الأبعاد التاريخية والجذور الفكرية لمسألة التحقيب الثلاثي، نشير إلى بعض محاولات التحقيب السلالي والخماسي، لا سيما هذا الأخير الذي لم يُكتب له الانتشار في الكتب المدرسية المختلفة. فقد استخدم مؤرخو الحضارة الإسلامية الذين كتبوا بعد الحملات الاستعمارية التحقيب السلالي، انطلاقاً من سلالة الفئة الحاكمة، فقسموا الزمن التاريخي من خلال الصراع السياسي على السلطة، ومن خلال حواضر الدولة الإسلامية المتنقلة من بلدة إلى أخرى، فأطلقوا على الحقبة السابقة لظهور الدعوة الإسلامية، العصر الجاهلي، وعلى الحقبة التي تليها عصر صدر الإسلام، فالعصر الأموي، ثم العصر العباسي، ثم العصر المملوكي، فالعثماني، وصولا إلى العصر الحديث.

رُسمت هذه الحقب دون التفات للزمن الحضاري، وهي تتفاوت من حيث قيمتها الحضارية وبيئاتها الثقافية وأنظمتها السياسية، وهذا الإجراء نوع من التحقيب السياسي الذي لا يراعي إلا هرم السلطة الحاكمة. وواضح أن المؤرخين الذين كتبوا التاريخ الإسلامي بهذا التحقيب متأثرين بقيم الحملات النابليونية على مصر، والتي حَمَلَتْ معها العديد من المفاهيم الغربية.

أما التحقيب الخماسي، فهو يعتمد على الظواهر الاجتماعية، والصراع القائم بين المادة والفكر. وقد عممه الماركسيّون على كل الظواهر البشرية، مقسمين إياه على خَمْسِ حقب رئيسة: العصر المشاعي، العصر العبودي، العصر الإقطاعي، العصر الرأسمالي، والعصر الاشتراكي[٢].

[٢] – التيمومي، الهادي، **المدارس التاريخية الحديثة**، (بيروت: دار التنوير، ط١، ٢٠١٣)، ص١٨.

وتتميز وسائل الإنتاج في العصر الأول، بأنها ملك مشاع بين الناس جميعا، في إطار الصراع الطبيعي الذي تطور في أشكال وصور مختلفة وصولاً إلى العصر الثاني العبودي الذي يتحول فيه البشر من مرحلة الملكية المشاعية إلى مرحلة التكتل وحيازة الأراضي العامة، فاستعبد القويُّ الضعيف، وهو ما هيأ لظهور حقبة ثالثة تمظهر في نمط الإنتاج الإقطاعي، وفيه تطور العبد من كونه أحد وسائل الإنتاج المشيئة إلى ارتباطه بالأرض، ومع تطور الاقتصاد تخلص جميع العبيد من سيطرة الأسياد، ولجأوا إلى المدن التي تحتضنهم ليساهموا في تطور النشاط الرأسمالي، وهنا يصل المجتمع البشري خلال كفاحه الطويل إلى الحقبة الرأسمالية، ولكنها حقبة تتأسس على الخصخصة والاحتكار والتمايز الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ومن أهم ما يميز هذه الحقبة الرابعة، أن المجتمع البشري سينشطر إلى طبقتين: طبقة كادحة مستأجَرة، وطبقة مرفّهة مستأجِرة، ولا توجد طبقة وسطى تصالح بين الطبقتين، وبعد فترة طويلة مليئة بالضغوطات النفسية والاقتصادية والسياسية، ينشأ صراع بين الطبقتين الكادحة والمرفّهة، فيتولد منه عصر خامس، وهو نمط الحياة الاشتراكي، وفيه تكونُ وسائل الإنتاج ملكاً مشتركاً بين الناس، فيعم الرخاء وتسود الرفاهية والأمن وتصبح الحياة بلا ألم، بلا حروب، وهذا النمط الاشتراكي تتوجه حقبة النظام الشيوعي، حياة بلا تمايز[٣].

وظل المدشنون الماركسيون الأوائل يعممون التحقيب الخماسي في أطروحاتهم على تاريخ العالم كبديل للتحقيب الثلاثي الغربي، فاعتبروا تاريخ البشر، هو تاريخ صراع بين الطبقات الاجتماعية منذ العصر المشاعي حتى العصر الاشتراكي. يقول البيان الشيوعي:«ليس تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا، سوى تاريخ صراع الطبقات»[٤].

ولكن رغم ذلك، لم يُكتب للتحقيب الخماسي وكذا السلالي الانتشار في العالم مثل ما حظي به التحقيب الثلاثي في الكتابات المدرسية والإبداعية. وأغلب الظن، أن

[٣] – ماركس، كارل، **رأس المال**، ج٢، ترجمة راشد البراوي، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧)، ص١٨٣-١٨٦.

[٤] – ماركس، كارل، وإنجلز، فريدريك، **البيان الشيوعي**، ترجمة العفيف الأخضر، (بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١٥)، ص٤٥-٤٦.

(ISSN: 2536 - 9555)

سبب ذلك يعود إلى عدد الوسائل التي عمد إليها فلاسفة وأنصار المذهب الليبرالي في أوروبا مع لذة انتصار معسكر الغرب الرأسمالي، على معسكر الشرق الشيوعي، فانتشرت فكرة التحقيب الثلاثي في العالم عبر الجامعات الغربية والكتب الثقافية والفكرية والمدرسية التي انتجها علماء ومفكرون غربيون.

جذور مصطلح التحقيب الثلاثي

صنّف صانعو المعرفة في أوروبا أيام تشكل الوعي بالزمن، التاريخ إلى حقب متفاوتة، وجرى هذا التصنيف عبر مراحل وآليات مختلفة، ولم تحصل هذه العملية الإجرائية لحظة واحدة، وفي إطار جغرافي محدد، بل حمل بصماتها معظم الفضاء الغربي. وهذا الوعي التاريخي، ليس له نظير في تاريخ الفكر الإنساني قبل القرن السابع عشر في أوروبا، فكان لهذا القرن السبق في مسألة الوعي بالزمن التاريخي؛ لأنه شكل نقطة الانطلاق في تصور التاريخ البشري بهذا النسق الإجرائي المتفرد في ضروب المعرفة التاريخية.

وفي هذا السياق، ذكر العروي، أن الأسقف والمؤرخ الفيلسوف جاك بينين بوسويه (Jacques Bénigne Bossuet) المتوفي عام ١٧٠٤م، أشار في كتابه: (تأملات في التاريخ الكوني)، إلى التقسيم التقليدي المبني على تسلسل الإمبراطوريات الأربع: الكلدانية، الفارسية، اليونانية، والرومانية التي يعتد بها المسيحيون. ثم طرح تحقيباً آخر استنبطه من الأيام السبعة التي استغرقها إبداع الكون، ليكون تحقيباً سهلاً خفيفاً على الذاكرة. وتبدأ الفترة الأولى للتحقيب الذي أجراه بوسويه من خلق الإنسان إلى تأسيس روما، وتقدر هذه المرحلة بحوالي أربعة آلاف وأربع سنوات (٤٠٠٤). ثم الفترة الثانية وتمتد من تأسيس روما إلى ولادة المسيح، أي سنة صفر ميلادية، وتقدر بحوالي سبع مئة وسبع وأربعين سنة (٧٤٧). ثم الفترة الثالثة وتبدأ من مرحلة رفع المسيح إلى السماء وإلى ما لانهاية[٥].

[٥] – العروي، عبد الله، **مفهوم التاريخ، المفاهيم والأصول**، ج٢، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧)، صـ ٢٧٢–٢٧٣.

هذا التحقيب الذي جاء به بوسويه، لم يكن مقبولا لدى المفكرين الأوروبيين مع مطلع القرن الثامن عشر، لتناقضه مع المضامين التي تشبّع بها ذلك القرن، ولكن رغم هذا، فقد مثّل تحقيب بوسويه حجر الزاوية لوضع تحقيب تطمئن إليه الفلسفة الأوروبية ويتلاءم مع المزاج والرغبة العامة للإنسان الغربي. استلهم كتّاب أوروبا من بعد بوسويه وبلوروا فكرة تحقيبية عالمية تطمئن إليها الذات الغربية، وقد نهض بها الألماني كريستوف سيلاريوسChristophori Cellarii (١٦٣٨-١٧٠٧م) الذي ألف في سنة ١٦٨٥م كتاباً أسماه: (التاريخ العالمي: القديم، الوسيط، الحديث)[٦]. والذي مهد للمؤرخين والأدباء طريق التحقيب، إذ جاء أندري دوشيسن فوضع كتابه: (تاريخ فرنسا الأدبي) في العام ١٧٣٣م منتهجاً نهج سيلاريوس في التقسيم الزمني لتاريخ الآداب[٧].

إن كتاب سيلاريوس يُعد عن جدارة واستحقاق الركيزة الحقيقية التي اتكأ عليها مفكرو الغرب بداية القرن الثامن عشر لتكوين نسق التحقيب الثلاثي، فالظهور الفعلي لهذا الإجراء كان في هذه الفترة التي استُلهمت من فكر سيلاريوس.

وإشارة إلى فترة سيلاريوس والجهود العلميّة التي قام بها لوضع هذا التحقيب الثلاثي، تقول بعض المراجع:«يعود ظهور التحقيب الثلاثي إلى القرن 17م، ويشكل أحد نتائج الجهود العلمية التي قام بها رواد النهضة الحديثة في أوروبا. ومعنى هذا أنه يندرج في إطار المدرسة الليبرالية التي احتضنت وأطرت العلوم الاجتماعية وجعلت منها إحدى واجهات الصراع ضد العصور الوسطى، وقد قُسّم التاريخ الأوروبي بموجبه إلى ثلاث حقب رئيسية هي: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، ثم التاريخ الحديث»[٨].

ثم عجّت مؤلفات القرن التاسع عشر بهذا التقسيم الزمني الذي اختطه سيلاريوس، تشيد بما حققه الغرب من إصلاح ديني واختراع للطباعة، وتفكك الوحدة

---

[6] - Cellarii, christophori, *historia vinversalis, divisa,* inae, felicis, bielcki, (cvm: io svmtv a,1710), p.234.

[٧] – الواد، حسين، **في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج**، (تونس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣)، ص١٤١.

[٨] – حواش، محمد، "ملاحظات واجتهادات حول مسألة التحقيب في التاريخ العربي" **ندوة التحقيب**، (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (١٩٩٧)، ص١٠٢.

(ISSN: 2536 - 9555)

الدينية للعصور الإسلامية، والثورة التقنية المزدهرة بالصناعات والمنتوجات، والكشوف الجغرافية الواسعة، وتقع كل هذه الإنجازات بين عامي ١٤٥٣– ١٥١٧م[٩].

ومن هنا، مَنحَ مصطلحُ التحقيب الثلاثي الإنسان الغربي جدولاً زمنياً سهلاً لتتبع مراحل تاريخه، وسمح له بتأسيس وعي فلسفي للحضارة، ولا ينطبق هذا المفهوم بالضرورة على تواريخ العالم، لا سيما التاريخ العربي الإسلامي على وجه الخصوص. إن العالم العربي والإسلامي، قد لا يمتلك القدرة على تبديل هذا الإجراء أو مقاطعته، ولو وُجد فإنه لا يتجاوز قيمة التقليد أو المصالحة، وهذا بدوره إشكال في داخل إشكال. وفيما يأتي سأعمد إلى إجراء مقاربات حضارية تبين أبعاد التحقيب الثلاثي الغربي، انطلاقاً من العصر القديم، مرورا بالعصر الوسيط، فالعصر الحديث.

أبعاد التحقيب الثلاثي

قسم علماء الجيولوجيا تاريخ الأرض إلى ثلاث فترات طويلة، تُعرف بالآباد أو الدهور: الدهر السحيق، الدهر الفجريّ، ودهر الحياة الظاهرة. وتُدغم الفترة الثانية في الأولى فتكونان فترة واحدة. أما دهر الحياة الظاهرة، والذي أصبحت الحياة فيه منتعشة ووافرة–كما يستشف من الاصطلاح–فيقسم إلى ثلاث حقب حسب التسلسل الزمني للتاريخ، وهي الحقبة القديمة، الحقبة الوسيطة، والحقبة الحديثة. وتقسم كل حقبة بدورها إلى عصور، ثم تقسم هذه العصور إلى أحيان، أو عصور ما قبل التاريخ وعصور ما بعده. وكل هذه التقسيمات لم تكن متساوية في الطول أو الفترة المستغرقة؛ ذلك لأن الفترة التي اصطُلح على تسميتها بالدهر هي أطول التقسيمات الزمنية، وهي فترة رئيسة عامة، وتتدرج تحتها العصور والأحيان، أو ما أطلق عليه حضارات العصور القديمة[١٠].

---

[٩] – برينتون، كرين، **تشكيل العقل الحديث**، ترجمة شوقي جلال، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢)، صـ ٢٤.

[١٠] – **أطلس العالم الكبير، مغامرات مشوقة في الجغرافيا**، (بيروت: مكتبة الصغار، ١٩٩٩)، ص٨٧.

وقد سلكت هذه الحضارات مراحل تطور متباينة، تختلف كل مرحلة عن الأخرى زمنياً ومكانياً، وفقاً لتاريخ اكتشافها الأولي الذي أجمع عليه الباحثون والعلماء على اعتبارها محطات فصل بين حضارات الشعوب. واستناداً إلى تلك الاكتشافات، قسم العلماء الغربيون تاريخ الشعوب إلى عدة مراحل زمنية[١١]:

حضارات ما قبل التاريخ، وتنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل رئيسة، هي: العصر الحجري القديم، العصر الحجري الوسيط، والعصر الحجري الحديث. ويزعم بعض المؤرخين الغربيين أن هذه العصور سابقة لمعرفة الكتابة، ومعظم ما قدمه البحّاث عن تلك الفترة السحيقة مجرد تخمينات لا تستند إلى وحي إلهي ولا إلى وثيقة مكتوبة ولا إلى تجربة علمية يحوطها البرهان الموصل إلى اليقين. وحتى دلائل الحفريات التي أدلى بها علماء غربيون، معظمها ظنون وافتراضات، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، حيث كل حفرية تكذّب الحفريات التي سبقتها، ولا تنطلق من حيث انتهت إليه سابقتها، وهذا مناقض للعلم اليقيني، فالعلم لا يكذب العلم، بل يسنده ويؤيده.

الحضارات التاريخية، وتنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل رئيسة، هي: العصر القديم، العصر الوسيط، والعصر الحديث.

أولاً: الحقبة القديمة

يمتد العمر الزمني للحقب القديمة من اختراع الإنسان للكتابة وينتهي بسقوط روما على يد الجرمان عام ٤٧٦م، وهي فترة تميزت بالإبداع ونبوغ الحضارات حسب ما رسّخت له التراجيديا الغربية[١٢]. ويقصد–الغرب–بالحقب القديمة؛ العظمة والازدهار والقمة الحضارية والفترة الذهبية للإغريق، والتي ميزت أوروبا آنذاك وجعلتها تتفوق في

[١١] – نخلة، منى يوسف، **علم الآثار في الوطن العربي،** (طرابلس: منشورات جروس برس، ٢٠١٠)، ص٢٠.– ٢١.

[١٢] – الحويري، محمود محمد، **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية،** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥م)، ص١٥٩.

(ISSN: 2536 - 9555)

شتى الميادين: الفكرية، والعسكرية، والثقافية، والتنظيمية. وهو عصر المدينتين الشهيرتين: أثينا وروما والمدن التي مثلتهما[١٣].

إن تداخل الأحداث التاريخية لا يسمح بوضع تحقيبات أو حدود زمنية للتاريخ، عبر مضامين حضارية تعبر عن ملامح البداية والنهاية. فالملامح العامة لا تعبر عن مدلول معين يمكن اعتباره حداً فاصلاً لمجرى التاريخ. ذلك أن الأحداث معظمها بشرية خالصة، أي أنها ساهمت في فعلها معظم الأجناس والأمم، أما المؤثرات الأخرى، كالدين، والأخلاق، والنهضة الثقافية، فعوامل مساعدة ومنفعلة بفعل البشر[١٤].

تتخذ الحقبة القديمة من فترة ظهور الكتابة حداً بارزاً يميز الحضارات الإنسانية القديمة الممتدة من الصين حتى مصر فجنوب الصحراء الكبرى، ولقد كان لهذا المناخ الطبيعي أثر ملموس في إنعاش الزراعة وبث روح الحضارة والاستقرار[١٥]. يقول ول ديورانت في هذا الشأن: «لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام، وفي خلال نصف هذا العهد، كان الشرق الأدنى مركز الشؤون البشرية التي وصل إلينا علمها»[١٦].

ومن حدث ظهور حضارة الكلمة، أسْدلَ الإنسانُ ستار التاريخ الشفهي، وبدأ بالتدوين والكتابة لحفظ ذاكرة الحضارة الإنسانية من الضياع. وقد سمحت حضارة الكلمة للإنسان بترحيل المعارف من مكان إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، فبنى الإنسان الحضارة بهذه المعارف التراكمية التي ورثها من أسلافه. وهذا من إنجازات العصور القديمة التي ظهرت فيها معجزة الكتابة والتي أسهمت في بناء وتشييد حضارة العصور القروسطية التي تلتها.

---

[١٣] – حواش، ص١٠٣.

[14]– Assmann, Jan, *Religion and Cultural Memory,* (Stanford: Stanford University Press, 2006), p17.

[١٥] – كوفاليف، ف، دياكوف، س. **الحضارات القديمة**، ج١، ترجمة نسيم وايكيم الزاجي، (دمشق: منشورات دار علاء الدين، ٢٠٠٠)، ص٦٧.

[١٦] – ديورانت، ول، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، (القاهرة: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ٢٠٠١)، ص٩.

ثانياً: الحقبة القروسطية

اجتهد بعض المؤرخين لوضع حد فاصل، تُعرف به نهاية العصور القديمة، وبداية العصور القروسطية، التي تلتها في الترتيب الزمني. منطلقين من بعض المنعطفات التاريخية الكبرى التي مرت بها الإمبراطورية الرومانية في أواخر عمرها. وعلى الرغم من اتفاقهم المبدئي على تفسير مضامين هذه الحقبة، إلا أن آراءهم قد تباينت في تحديد البداية الحقيقية لهذه الحقبة، وذلك لتداخل الأحداث التاريخية وتشابكها من ناحية، وصعوبة تمييز المخلفات الفكرية والحضارية التي ترثها الحقب الجديدة عن الحقب المنهارة من نواح أخر.

ونظراً لهذا الغموض الذي اكتنف هذه الحدود الزمنية، فقد عدّ البعض كل الأحداث التي وقعت بين الحقبتين وهيأت لولادة ظروف جديدة بداية حقيقية لها، كاعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية في العام ٣٣٠م وتقسيم حكم الإمبراطورية الرومانية بين ولدي الإمبراطور تيودوسيوس الأول أركاديوس، وأنوريوس في العام ٣٩٥م[١٧].

بينما حدد البعض بداية العصور الوسطى بسقوط الإمبراطورية الرومانية في العام ٤٧٦م. وامتدت هذه الحقبة حوالي عشرة قرون أو تزيد[١٨]. وأول من استعمل اصطلاح (العصر الوسيط: aevum medium) هم الآباء الإنسانيون الإيطاليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم شاع هذا الاصطلاح حتى الوقت الحاضر[١٩].

والحقيقة أنه لا يوجد خلاف كبير بين هذه الاجتهادات في تحديد حدود تفصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى. فالأحداث البارزة التي انطلق منها الجميع وجعلها حداً بين العصرين، يمكن أن نستخلص من بينها إطاراً عاماً نعتبره فاصلاً

---

[١٧] – فرح، نعيم، **الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى**، (دمشق: جامعة دمشق، ٢٠٠٠)، ص٧.

[١٨] – إسماعيل، ليلى عبد الجواد. **حضارة أوروبا في العصور الوسطى**، (القاهرة: دار الثقافة العربية، ٢٠٠٥)، ص١٥٦.

[١٩] – نعيم، ص١٠.

(ISSN: 2536 - 9555)

حقيقياً؛ لأن حدث اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية، وحدث انقسام روما إلى دولتين، وحدث سقوطها بالكامل على يد البرابرة، كلها عبارة عن إرهاصات لسقوط الحضارة الرومانية برمتها. فالحضارات لا تسقط فجأة بعارض من العوارض، وإنما تمر بمراحل طبيعية كامنة فيها، تُسمى أحياناً بالاضمحلال والهرم، وأحياناً بالضعف والانحلال الذي يسبق السقوط النهائي. وقد تستمر فترة مرض الحضارة مئة عام أو أكثر، وقد تكون المدة الزمنية أقل من ذلك إلى أن تلفظ الحضارة المنهارة أنفاسها الأخيرة، وهذا ما حصل بالضبط للإمبراطورية الرومانية. فقد تسلسل إليها الهرم والمرض في حين غفلة، ثم تداعت إلى الموت. وهذا ما أثار حفيظة بعض الغربيين فأطلقوا على هذه الظاهرة الحضارية التي لاحقت الحضارة الرومانية في نهايتها بظاهرة السهو الحضاري الذي أتاح للهمجيين البرابرة بالمبادرة والإجهاز عليها وتسليمها للسقوط والموت المحتوم.

إن الإمبراطورية الرومانية شهدت هذه النهاية غير المتوقَّعة؛ لأن الشعوب الجرمانية أو البربرية أو الصحراوية قد زحفت في لحظة لم يكن الرومان على انتباه لهذا الزحف، وهو زحف بشري عنيف. انطلق من معظم جهات المتوسط والبلاد الاسكندنافية منذ النصف الثاني من القرن الثالث، فبدأت تُضِيق الخناق على الحضارة أو الإمبراطورية الرومانية، من خلال موجات عسكرية شرسة، وكانت فعلاً ضربات قاسية متحالفة ومختلفة من قبائل: الهون، القوط، الفيزيقوط، الوندال، البورجنديين، اللومبارديين، السلتيين، والنورمان وغيرهم من الشعوب التي تجتمع تحت راية واحدة ويطلق عليها برابرة أو جرمانية، وذلك لتعدد لغاتها وديناتها ونمط عيشها المتقشف[٢٠].

وقد اختلف المؤرخون والمفكرون حول هذه الشعوب وما حققته من نصر حضاري، أو خراب للإمبراطورية الرومانية، فهناك المادح الذي يرى أن ما قامت به تلك الشعوب، هو نصر وفتح حضاري للعالم، في حين يرى القادحون، أنه فساد وخراب كبير، أتاح فرصة للشعوب غير الغربية كالعرب والترك والأكراد، الدخول في التاريخ من

[20] – William, A. Pelz, *A People's History of Modern Europe*, Pluto, (British: Library Cataloguing in Publication Data, 1988), p. 30.

أوسع أبوابه، فتسلمت زمام المبادرة الحضارية، وقادت البشرية أربعة قرون متتالية، حتى نهاية العصور المسماة بالوسطى[٢١].

لقد اعتبر الفكر الغربي نهاية (العصور الوسطى) هي محط رحال تنتهي إليها رحلة التاريخ المظلم، لتبدأ المسيرة الحضارية للتاريخ البشري المفْعم بالحيوية والاكتشافات العلمية والحضارية. ويستجلي الدكتور عبد الحميد البطريق هذا المعنى الغربي بقوله: «يظن بعض الناس أن العصور الوسطى عصور تأخر وانحطاط، وهو وصف لا يمثل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً، ولعلّ هذه الفكرة ترجع إلى الأثر الذي أحدثه انبثاق العصر الحديث بما حمل من نهضة وتقدم في أذهان الناس، فقد كان هذا الأثر قوياً إلى الحد الذي حجب الماضي عن أعينهم، فكان في نظرهم ظلاماً كله»[٢٢]، وهو ليس كذلك.

ولا شك أن هذا الإجراء الذي يصف هذه الفترة بالظلامية، يحمل في طياته من الأبعاد الفكرية والتربوية ما يستوقف المتأمل في الفكر الحضاري للإنسان، ذلك أن مثل هذا الإجراء لا تظهر مضامينه الفكرية إلا بالقراءة الفلسفية المتأنية للتاريخ؛ بل تخْفى تلك المضامين عن كثير من المختصين في هذا المجال، فضلاً عن المتعلمين والباحثين المبتدئين.

وقد عزا الدكتور فاروق فوزي، هذا التحيز أو التضليل التاريخي المتوارث بين المفكرين الغربيين، إلى الظروف التي صاغت ذلك الفكر، حيث كانت ولا تزال البيئة

---

[٢١] – ساليفان، أ. ريتشارد، **ورثة الإمبراطورية الرومانية، الجرمانية، العالم الإسلامي، الدولة البيزنطية**، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، (الإسكندري: مؤسسة الشباب الجامعية١٩٨٥)، ص٣٩.

[٢٢] – البطريق، عبد الحميد، نوار، عبد العزيز، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، (القاهرة: دار القلم العربي، ١٩٩٧)، ص٩.

(ISSN: 2536 - 9555)

الغربية تستمد ثقافتها من جذور تاريخية يغذيها التعصب والنزعات العرقية والميول والعواطف السياسية، فتقف هذه المكونات أمام الموضوعية العلمية[٢٣].

أما فولتير باعتباره أحد أهم أعمدة فلسفة التاريخ الإنساني، فقد أشاد بالعصور القديمة في أثينا وروما، وأشاد بعصر النهضة والتنوير في أوروبا، ولكنه أفرغ كامل انتقاداته على العصور المسيحية والإسلامية، واعتبرها عصور بربرية وخيال، بل هي من أكثر عصور التاريخ تدهوراً وركوداً[٢٤].

وكان الإنسانيون الإيطاليون مولعين كثيراً بالحضارة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) فعملوا على إحياء تلك الحضارة، وأطلقوا على العصر الذي تلى عصور الانحلال (عصر النهضة)؛ لأنه امتاز ببعث التراث الكلاسيكي القديم. وكانوا يعدُون المرحلة التاريخية الممتدة من سنة ٤٧٦ إلى ١٤٩٢م مرحلة تأخر وانحطاط، سادت خلالها حضارة بربرية باهتة – وهي ذروة مجد العرب والمسلمين– ليس لها إنجاز تاريخي إلا طمس الحضارة الكلاسيكية الرائعة. وعلى هذا الأساس كانت (العصور الوسطى)– برأيهم– عصور ظلام وإقطاع، عصور متخلفة في شتى الميادين الحضارية[٢٥].

وفي حين يقظة من التاريخ، استطاع الغرب مرة أخرى استعادة الماضي القديم بالاستيلاء على زمام قيادة الحضارة وانتزاعه عنوة من المسلمين، وهي حقبة تشير إلى اضمحلال المدارس الفكرية والفلسفية في الشرق، ما نتج عنه تراجعاً فكرياً وتجزئة سياسية قضت على الأخضر واليابس في المشرق الإسلامي برمته. ويطلق على مجموعة هذه الإرهاصات في الكتابات الغربية نهاية العصور الوسطى التي توجت بظهور مصطلح آخر يحمل مفاهيم التفاؤل، متزامناً مع حدث تاريخي مؤلم بالنسبة

---

[٢٣] – فوزي، فاروق عمر، **الاستشراق والتاريخ الإسلامي**، (عمان: منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ص١٣٩.

[٢٤] – الشيخ، رأفت غنيمي، **فلسفة التاريخ**، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٨)، ص١٠٨.

[٢٥] – المرجع نفسه، ص١١.

للمسلمين، وهو نهاية آخر إمارة إسلامية أندلسية كانت تحكم في أوروبا سنة ١٤٩٢م، وهي إمارة غرناطة. كما يتزامن هذا المفهوم مع فترة اكتشاف القارة الغربية الجديدة (أمريكا سنة ١٤٩٢م) وانتعاش تجارة الرقيق فيها[٢٦].

وانطلاقاً من هذه الأحداث التاريخية الجسيمة والتي بشّرت باضمحلال الحضارة الإسلامية والتقدم المرتقب للغرب، غيّر الكتاب الغربيون نظرتهم للتاريخ، فاصطلحوا على هذه الحقبة (العصور الحديثة)؛ لأنها أسدلت الستار على الظلام الدامس والذي عانى فيه الغرب سنين عدداً. ولما أزال هذه الفترة وشعر بالتقدم والتطور الرهيب بانتعاش حركة الفكر والعلم، ظن الإنسان الغربي أنه استعاد مجد آبائه وأجداده الضائع من جديد، ومن هنا اكتسبت فترة (العصور الحديثة) شرعية تسميتها من هذه الأحداث الحاضرة في ضمير أي إنسان غربي.

ولكن هل فعلاً، كانت العصور الوسطى، عصور تخلف وانحطاط؟ وهل هو انحطاط عالمي شمل جميع أجزاء العالم، أم أن التخلف صادف الغربيين فقط؟

ففي الوقت الذي كان فيه نجم أوروبا يأفل ويتوارى خلف حجاب سميك من العزلة والفوضى والجهل، كان العرب يستجمون قواهم للخروج من متاهتهم التاريخية وحالة التبعية التي ظلت تميز تاريخهم السابق. فحينما كانت تتهدم الوحدة السياسية لكل من الإمبراطورية الساسانية والبيزنطية، كان العرب يؤسسون بقوة، وحدتهم السياسية وتفوقهم الحضاري المقبل. وفي أقل من مائة سنة امتدت دولتهم من الصين شرقاً إلى جبال البرانس غرباً، ناشرةً سيادتها على أطراف مهمة من القارات الثلاث. وبعد ذلك في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ازدهرت حضارة عربية إسلامية ساهمت فيها شعوب مختلفة[٢٧].

وتنبيهاً لخطورة التعميمات الاصطلاحية التي يطلقها عموم الكتاب والباحثين، صَرَخَ شوقي أبو خليل قائلاً: «وبعد هذا كله يقع بعضهم في خطأ عظيم، عند ما

---

[٢٦] – هنية، عبد الحميد، "حول التحقيب التاريخي"، مجلة أسطور، العدد ٣، كانون الثاني/يناير (٢٠١٦) ص٢٢٤-٢٢٥.

[٢٧] – حواش، ص١٠٤– ١٠٥.

(ISSN: 2536 - 9555)

يعممون قائلين: العصور الوسطى عصور ظلام وحرق للعلماء، ومحاربة للمعرفة، هذا حق لا ريب فيه، لكنه ينطبق هناك عندهم، في أوروبة وحدها، عند ما كانت تخاطب الإنسان بقولها: أطلع وأنت أعمى»[٢٨].

ولهذا؛ فإن التمادي في استمرار مفهوم القروسطية، سيغير مضمون فترة مهمة لتاريخنا الإسلامي والأفريقي ومن ثم يخرج هذه الأمم من سياق التاريخ. وعندما نعترف بمفهوم (القروسطية)؛ فإن هذا الاعتراف سينصرف إلى شيئين:

الأول: الانسحاب المباشر من مسرح التاريخ البشري.

الآخر: الاعتراف بفضل الغربيين علينا؛ باعتبارهم أنقذوا البشرية من ظلمات (العصور الوسطى)، عصور التخلف والانحطاط، والتي سادت فيها حضارة المسلمين.

إن التلاعب بالناشئة أو المتعلمين في بلداننا الإسلامية والأفريقية قد ولى دون رجعة، وإلا كيف نفهم معنى الظلام في ظل رقي النظم السياسية التي عرفتها أفريقيا؟ لا شك أن الاحتلال الغربي يحاول إقصاء العرب والمسلمين الذين لهم أثر في نشر الوعي التاريخي في أفريقيا، ولكن لا يمكن بحال، فصل التاريخ الأفريقي عن التاريخ العربي/الإسلامي بأي شكل من الأشكال، نظراً للعلاقات السياسية والدينية والاجتماعية التي تربط بين هذه الشعوب من قديم الزمان.

ثالثا: الحقبة الحديثة

مصطلح من منتوجات القرن الرابع عشر، ولكن كتب له الذيوع والانتشار في القرن السابع عشر، ويعني الحداثة من منظور العلوم، ومنذ النشأة ارتبط المصطلح بالعلم والفن اللذان يؤديان إلى التقدم والرقي، ثم رُمز له بالبعث والنهوض والخروج من دائرة العصور الإقطاعية المظلمة (الوسطى) والدخول في مرحلة انبعاث واستمرار واستعادة المركزية الغربية للمرة الثانية[٢٩].

---

[٢٨] – أبو خليل، شوقي، **الحضارة العربية الإسلامية**، (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ٢٠٠٣)، ص١٨.

[29] - Rey, Alain, *Dictionnaire historique de la langue française*, paris: université paris, 2008), p589-599.

شاعت تسمية الحداثة بين الأوساط الغربية بعصر الإصلاح الديني، عصر النهضة، عصر العقلانية، عصر التنوير، عصر الازدهار، عصر الوضعية، وعصر الصناعة. ومن ثم تسرّبت هذه المسميات إلى الكتاب العرب والأفارقة وقبلوها دون تمحيص أو نقد لمدلولاتها الأيديولوجية وأبعادها الفكرية. وقد ذكر التيمومي، بأن الجهل بمفاهيم الحداثة في الكتابات الشرقية، لا سيما في جامعاتنا العربية والأفريقية، يعود إلى الأساليب الغامضة التي كتب بها عمالقة الفكر الأوروبي عند صياغتهم للتاريخ العالمي، فحتى الذين حاولوا التعرف على تلك الأساليب، اصطدموا بصعوبة بعض ما قرأوه؛ خاصة إذا اختلط علم التاريخ بشيء من الفلسفة أو علم النفس أو الاقتصاد[٣٠].

ويعني الخروج من سيطرة العصور المظلمة والدخول في عملية بعث جديد، لاستعادة الدور الريادي للحضارتين اليونانية والرومانية، ومن هنا ظهر مفهوم (الحديث) أي تحديث المجتمع الغربي وتجديده باستعادة ماضيه التليد. وقد تحددت بداية العصور الحديثة بحوادث مهمة بالنسبة إلى الإنسان الغربي، كحركة الكشوف الجغرافية التي قامت بإعداد تقارير وخرائط عن المجتمعات الشرقية، ثم تلتها الثورة العلمية التي ظهرت غربيّ أوروبا منذ القرن السابع عشر كرد فعل للمصادرات الفكرية التي انفردت بها الكنيسة، وقد بذل الفلاسفة الماديون جهداً كبيراً من أجل إعادة النظر في التعاليم الكهنوتية، حتى استطاع الفكر المادي الإلحادي أن يمتص معظم المعارضات الداخلية، إضافة إلى ذلك؛ فإن هذه التغيرات العميقة والتطورات الكبيرة–بحسب تعبير يوسف كرم– وما تبعها من تحولات كفتح الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وانهيار الإمبراطورية البيزنطية وهجرة علمائها إلى إيطاليا، اعتبرها المؤرخون نقطة تحول حقيقي من العصر الوسيط إلى العصر الحديث[٣١].

وإذا انطلقنا من كل هذه الظواهر العظام لتحديد حقبة العصور الحديثة؛ فإنها فعلياً بدأت من عام ١٤٩٢م وانتهت بالعام ١٧٨٩م، وبين هذين التاريخين، استطاع الإنسان الغربي أن يكافح حتى استعاد حقوقه الحضارية التي سلبتها العصور الوسطى،

[٣٠] – التيمومي، ص٥.

[٣١] – كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢)، ص٥.

(ISSN: 2536 - 9555)

ودخل مرحلة انعتاق حضاري وتحديث اجتماعي، وتطور صناعي، وفيها ساد الفكر الإنساني باعتلاء الإنسان مركز الحياة–الإنسان الغربي طبعاً–فانتعشت الصناعات في أوروبا، وامتدت حركة الاستعمار، وتقوقعت سلطة الكنيسة في الغرب وسلطة المسجد في الشرق ضمن المشروع الإنساني الذي مهد للثورة الشعبية في أوروبا.

خلاصة.

وعموماً؛ فإن هذا المصطلح المركب (التحقيب الثلاثي) يحتاج إلى إعادة نظر وإلى قراءة تصويبية لأبعاده الفكرية ومضامينه التأويلية؛ لأنه لا ينطبق على كل جوانب السيرورة التاريخية التي قطعتها الحضارة الإنسانية عبر فتراتها المختلفة، وإن إسقاطه على الحقبة المسيحية والإسلامية الكبيرة ووصفها بالعارض الحقير، تترتب عليه نتائج علمية وتربوية غير محمودة. فضلاً عن الحيف المرتكب في حق هذه الحقبة المهمة من تاريخ البشرية. لأجل ذلك وجب علينا تنبيه أجيالنا القادمة على خطورة وضع هذا المشكل، حتى يعملوا على وضع تحقيب عربي أو أفريقي بديل يتلاءم مع الخصوصية التاريخية والحضارية للشعوب العربية والأفريقية.

قائمة المراجع

أولاً- المراجع العربية

- الواد، حسين، **في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج**، تونس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣.
- هنية، عبد الحميد، "**حول التحقيب التاريخي**"، **أسطور**، العدد ٣، كانون الثاني/يناير ٢٠١٦.
- نخلة، منى يوسف، **علم الآثار في الوطن العربي**، طرابلس: منشورات جروس برس/ دار حكمت شريف، ٢٠١٠.
- ماركس، كارل، وإنجلز، فريدريك، **البيان الشيوعي**، ترجمة العفيف الأخضر، بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١٥.
- ماركس، كارل، **رأس المال**، ترجمة راشد البراوي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧.
- كوفاليف، ف، دياكوف، س. **الحضارات القديمة**، ج١، ترجمة نسيم وايكيم الزاجي، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ٢٠٠٠.
- كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢.
- فوزي، فاروق عمر، **الاستشراق والتاريخ الإسلامي**، عمان: منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.
- فرح، نعيم، **الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى**، دمشق: جامعة دمشق، ٢٠٠٠.
- العروي، عبد الله، **مفهوم التاريخ، المفاهيم والأصول**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧.
- الشيخ، رأفت غنيمي، **فلسفة التاريخ**، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٨.
- ساليفان، أ. ريتشارد، **ورثة الإمبراطورية الرومانية، الجرمانية، العالم الإسلامي، الدولة البيزنطية**، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الإسكندري: مؤسسة الشباب الجامعية١٩٨٥.
- ديورانت، ول، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، القاهرة: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ٢٠٠١.

(ISSN: 2536 - 9555)

- الحويري، محمود محمد، **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥م.
- حواش، محمد، "**ملاحظات واجتهادات حول مسألة التحقيب في التاريخ العربي**" **ندوة التحقيب**، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧.
- التيمومي، الهادي، **المدارس التاريخية الحديثة**، بيروت: دار التنوير، ٢٠١٣.
- البطريق، عبد الحميد، نوار، عبد العزيز، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، القاهرة: دار القلم العربي، ١٩٩٧.
- برينتون، كرين، **تشكيل العقل الحديث**، ترجمة شوقي جلال، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.
- **أطلس العالم الكبير، مغامرات مشوقة في الجغرافيا**، بيروت: مكتبة الصغار، ١٩٩٩.
- إسماعيل، ليلى عبد الجواد. **حضارة أوروبا في العصور الوسطى**، القاهرة: دار الثقافة العربية، ٢٠٠٥.
- أبو خليل، شوقي، **الحضارة العربية الإسلامية**، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ٢٠٠٣.

أولاً- المراجع الأجنبية

- Assmann, Jan, *Religion and Cultural Memory,* Stanford: Stanford University Press, 2006.
- Cellarii, christophori, *historia vinversalis, divisa,* inae, felicis, bielcki, cvm: io svmtv a,1710.
- *Halbwachs, Maurice, On Collective Memory,* Chicago: The University of Chicago Press, 1992.
- Rey, Alain, *Dictionnaire historique de la langue française*, paris: université paris, 2008.
- William, A. Pelz, *A People's History of Modern Europe*, Pluto, British: Library Cataloguing in Publication Data, 1988.